بدايات التبشير المسيحي في المغرب الإسلامي القرن6-7هـ/12-13م: دراسة في الحيثيات والأهداف

أ. شريف عبد القادر *

مقدمة: تعد ظاهرة التنصير من الناحية التاريخية في المغرب الإسلامي ذات أهميَّة بالغة، لكون البحث والدِّراسة في هذا المجال لا زال لم يأخذ حقه عند الباحثين والمؤرخين؛ ومردُّ ذلك راجع بالأساس للغموض والحساسية المتَعلِّقة بطبيعة هذا الموضوع وصلته المتشعبة بمختلف المجالات:الدينية والاجتماعية والسياسية.

ومن هذا المنطلق كان الاهتمام بتاريخ هذه الظَّاهرة لتكوين رؤية متكاملة عن تجليَّاتها ومظاهرها التي كانت موجودةً به في السابق، من أجل فَهم ما هو موجود في الحاضر، خاصَّة وأن وتيرة الظاهرة في تزايُد مستمر في السَّنوات الأخيرة، ثُمَّ استشراف ما هو آتٍ في المستقبل. إن البحث في الموضوع يمثل تحديا نظرا لصعوبة الوقوف على إجابات يقينيَّة عن تاريخ التَّنصير في المغرب، لاعتبارات عدَّة تأتي في مُقدمتها، ما يتطلبه الأمر من تدقيق وتمحيص وبحث في مختلف المصادر التاريخيَّة والنوازل الفقهيَّة لرسم صورة واضحة المعالم ومتكاملة الأبعاد عن موضوع لم يتجرَّد من حساسيته يومًا، ومثير لقضايا عدَّة تبدأ بالعقيدة وتنتهي بالسِّياسة، لتمر على الاقتصاد والثقافة وغيرها، وهو ما يتَّضح جليًا من خلال تصفُّح البيبليوغرافيا المحدثة التي تناولت بالدِّراسة دول المغرب في العصر الوسيط مثلاً، وهي مادة مصدرية تَشهَد ضعفًا وقلة في حديثها عن الموضوع، وذلك راجع أساسًا للحساسية الدينية والسياسية التي كانت تدفع ببعض المؤرخين لإغفال ذكر المعطيات التَّاريخيَّة المرتبطة بالموضوع.

ويمكن أن نمثل في هذا الصدد بالمؤرخ البَيْذق الذي أغفل مثلاً استعانة عبد المؤمن بالمرتزقة النصارى للدخول إلى مراكش سنة 541هـ، رغم أنه عاصر الحدث وعايشه، كما أن المؤرخ

* أستاذ مساعد في التاريخ الإسلامي – قسم التاريخ–كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعدالله.

المراكشي لم يتحدث البتّة عن بناء الموحدين لكنيسة مراكش، في الوقت الذي "تحامل فيه كثيرا على المرابطين وساهم في تشويه صورتهم".

1- **تعريف التنصير والتبشير:**

المعنى اللغوي: كلمة تنصير مصدرها نصر، ونصّره جعله نصرانياً، والتنصير الدخول في النصرانية، وتنصّر أي دخل في دين النصرانية.[1]

المعنى الاصطلاحي: هو الدعوة إلى دين النصرانية ومحاولة نشر عقيدته في أنحاء العالم بالأساليب المتنوعة، ويبدو أنه لا يختلف كثيرا في المعنيين وفي الحديث «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، كما يعتبر حركة دينية سياسية استعمارية، هدفها نشر المسيحية بين الأمم.[2]

التبشير: لفظة مرادفة للتنصير، لكن استخدامها يوحي بغير مضمونها، ومعناها أنهم يقومون بذلك: التبشير بالمسيح عليه السلام ودينه.[3]

2- **علاقة المسيحية ببلاد المغرب:** إن المصادر التاريخيّة القديمة التي تحدّثت عن النّصرانيّة في المغرب الاسلامي تتّسم بالقلة والندرة في العموم، فإنّ بعضها أشار إلى أنّ أهل المغرب دانوا بالنصرانيّة قبل مجيء الإسلام عن طريق قرطاجة[4] إذ ظهرت في بادئ الأمر كخصم عنيد للرومان بشمال إفريقيا لا تعترف بآلهتهم ولا تعطي أيّ قيمة لثقافتهم الدينية؛ لكن دون أن تستطيع جل المصادر تحديد وضبط متى كان الدخول. ولا كيفيته.

بيد أنّ للمؤرخ المكي الناصري في كتابه الاستقصا كان من القلائل الذين أشاروا إلى أنّ دخول النصرانيّة إلى المغرب كان في القرن الرابع، وبه فسّر وجود بعض الزعماء الأمازيغ النصارى، وهناك رأي آخر لأحد المؤرخين ينفي فيه اعتناق المغاربة للنصرانيّة باستثناء بعض المناطق السّاحلية وبالتالي كان اعتناقًا سطحيًا لا غير[5] هذه هي جُل المعطيات الأساسيّة التي تقدمها جل النّصوص المؤرخة للوجود النّصراني في المغرب، وتستند إلى أنّ المدّ النّصراني وصل إليه عن طريق الرومان الذين كانوا يسيطرون على سواحله، فألزمت الرّعية بهذا الدين، ولكن هذا الإلزام لم يمكن هذا الدين من التّغلغل داخل بلاد المغرب، وإنما كان ممتدًا بصورة سطحيّة على طول الشريط الساحلي في المغربين الأوسط والأقصى.[6]

الشيء الذي دفع بعض الباحثين إلى نفي اعتناق المغاربة للنصرانية، واقتصار الأمر على بعض المناطق الساحلية؛ بل شكّك آخرون في عُمق إيمان ساكنة شمال إفريقيا عمومًا بالنّصرانيّة؛ إذ وصف إيمان هذه السّاكنة بمُجرّد الانطباع الذي لا يمكن دعمه لا بالأرقام ولا بالوثائق؛ بل حتى آثار الكنائس الضّخمة التي يتحدث عنها بعض المؤرخين الغربيين لا يعرف عددها بالضبط، ولا تدل بالضّرورة على كثرة عدد المؤمنين، بقدر ما تدل على ثروة وغنى مَن تَبَرّعَ بتشييدها، وربّما قد يكون مُستَقرا خارج إفريقيا، إضافةً إلى أنّها آثار ترجع إلى تاريخ متأخر ولا تبعد كثيرًا عن قرطاج[7] .هذه فقط عجالة مختصرة عن الوجود النصراني قبل الإسلام.

وجدير بالذكر أن أهم الروافد الأساسية للوجود النصراني بالمغرب بعد الفتح الإسلامي، كان عن طريق عملية "الارتزاق" أو الاستجاشة بالنصارى؛ وهي قائمة على أساس المساهمة في الحروب التي تخوضها السلطة المغربية ضد "المتمردين"، وتعد من الظواهر التي اكتنفها الغموض والاضطراب، نتيجة الحضور المحرم أو المحظور في المجتمع، وأيضًا لما يشكله موضوع "الارتزاق" باعتباره حلقة من الحلقات المنسية في تاريخ المغرب[8] .

كل هذه المعطيات الأولية تستبعد فرضية الحديث عن كون ظاهرة التنصير جديدة بالمغرب، بل يمكن القول بتحفظ عنها أنّ لها امتدادًا في تاريخ المغرب، وهذا مرتبط أساسًا بالموقع الجغرافي الذي يحتله المغرب.

وفي الوقت ذاته، فإن القول بأنها ظاهرة قديمة ذات جذور تاريخية، قول لا تدعمه الوثائق الكافية، حيث لا نستطيع في الوقت الحالي تحديد متى بدأ التنصير وكم تنصر من المغاربة، ولا معرفة الطبقات والجماعات العرقية التي تَنَصَّرت[9] بيدَ أن غياب المعطيات وشُحّ الوثائق لن يدفعنا للقول بأنها مجرد عمليات سطحية، فلا ننكر وجود بعض المصادر التاريخيّة التي أشارت إلى الوجود التّنصيري ببعض مناطق المغرب خصوصًا السّاحلية منها، وكذا حديثها عن استعانة بعض الأمراء المغاربة بالنّصارى في إطار ما يسمّى بـ"ظاهرة الارتزاق" الآنفة الذكر أو في إطار الوساطات السياسيّة والاقتصاديّة، مع البَلاطات الكاثوليكيّة، وفيهم عدد من رجال الدّين الذين كانوا يبلغون الرسائل المتعلقة بافتكاك الأسرى أو علاج المشاكل الطارئة، وللإشارة أنّه لم تقتصر الخطابات على مُجرّد الشُّكر والوساطة؛ بل تجاوزتها أحيانًا لدعوة السلاطين

المغاربة للنَّصرانيَّة بشكل مباشر، لم تخل من التهديد والإنذار، ويمكن التَّمثيل في الحالة الأولى بنص للبابا "كريكوار التاسع"، فقد ورَدَ فيه: "إن البابا يأمل أن يأتي اليوم الذي يفتح فيه عينه للنور الصادق"، والمقصود بالنور الصَّادق بالطبع النَّصرانيَّة[10]، ونجد أيضًا رسالة أخرى موجهة من البابا "إينوصانت" يلح فيها على السلطان المرتضى إنجاز المطالب التي تقدم بها، مضيفًا إلى ذلك أنه سيمنع النصارى من الدخول إلى مراكش إن لم تقبل، وأنه "سيطلب من أستقف هذه المدينة وقف مساعدة الجند للسلطان"، وللإشارة أن العلاقات بين المغرب والبابا كثيرًا ما تصدَّعت بمثل هذه الخطابات التي كانت شبيهة بالدَّعوة لاعتناق النَّصرانيَّة، مقابل تقديم المساعدة العَسكريَّة[11].

وعليه؛ فإنَّ السَّعي التنصيري المتقدم والواضح وبكيفيَّات مباشرة وغير مباشرة، كان هدفه الأساسي تثبيت النَّصرانيَّة بالمغرب، كما هو الشأن بالنسبة للمُنَصرين الأوائل من إيطاليا الذين أرادوا تأسيس المذهب الفرنسيسكاني ومُناهضة الدِّين الإسلامي.

3- **دور المنظمات الدينية والبابوية في عملية التبشير**: تعتبر هذه المرحلة بداية لانطلاق حركة التنصير والتبشير المسيحي في بلاد المغرب بعد أن وجدت المناخ الملائم من خلال تزايد عدد الوافدين من النصارى وبروز نشاط الارساليات التبشيرية المسيحية، حيث عادت الحركة الصليبية لأحياء جهودها التنصيرية في افريقية من جديد، وقد وجدت في رهبان الفرانسيسكان والدومنيكان[12] خير وسيلة لتنفيذ مخططاتها[13].

وقد بدأ نشاط منظمة الفرانسيسكان في بلاد المغرب بعد اتصال مؤسسها القديس فرانسيسكو بملك قشتالة عام 1213م وذلك من أجل مساعدته في السفر الى المغرب العربي هو وأتباعه. وبعد الاجتماع الديني الذي عقد عام 1219م بهدف ارسال بعثات تبشيرية إلى كافة أنحاء العالم، خصصت بعثة إلى المغرب العربي والتي تكونت من خمسة رهبان، اضطلعوا بالعمل التبشيري علنية وأصروا على ذلك مما أثار حفيظة المسلمين ضدهم. فأمر الخليفة بطردهم فاقتيدوا إلى سبتة ثم عادوا إلى مراكش ليتم اعدامهم في 12 جانفي 1220م[14]. وهناك بعثة اخرى توجهت إلى افريقية كان يقودها الراهب جيلز الأسيزي، وصارت تدعو إلى التنصير علنية وبالتعصب، مما جعل نصارى افريقية يرغمونهم على الرحيل خوفا من المسلمين.

وفي عام 1227م وفدت على المغرب العربي بعثة فرنسيسكانية مكونة من سبعة منصرين، وصلت إلى سبتة وبدأت تدعوا إلى اعتناق المسيحية بين المسلمين غير مبالية بنصائح النصارى المقيمين، فتم القبض عليهم واقتيدوا إلى مراكش حيث أعدموا في 10 أكتوبر 1227م[15] كما ظهر نشاط تنصيري في بلاد المغرب العربي على يد منظمة تدعى "الثالوث المقدس" أواخر القرن الثاني عشر أسسها "حنا دي ماتا" عام 1198م، وكانت مهمتها الرئيسية هي فداء الأسرى الذين كانوا يوجدون في بلاد المغرب العربي، بدأ نشاطها بإرسال بعثة إلى مراكش، ثم إلى كافة المغرب العربي، وخلال تنقلات أتباعها كانت تمارس التنصير، واستطاعت أن تؤسس حوالي مائة مركز، وتمكنت من افتداء 214 أسيرا مسيحيا. وقد اتسع نشاط هذه الحركة خلال القرن الثالث عشر الميلادي وكانت لها صلة بالبابوية وملوك أوروبا.[16]

فالمؤرخ ابن أبي زرع يورد رواية مفادها حرص ملوك أوربا على ضرورة إنشاء الكنائس مع ضمان حرية العبادة، عندما أراد المأمون قتال ابن أخيه، فيقول: "لما كان متوجها إلى مراكش بعد مبايعته علم بنكث هذه البيعة في الجزيرة الخضراء، فبعث من حينه إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث يستنصره على الموحدين، ويسأله أن يبعث له جيشا من الروم يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحي ومن معه، فقال له ملك قشتالة لا أعطيك الجيش إلا على شرط أن تعطيني عشرة حصون مما يلي بلادي أختارها بنفسي. وإذا مَن الله تعالى ودخلت مراكش تبني للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة في وسطها. يظهرون بها دينهم ويضربون نواقسهم في أوقات صلواتهم، وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل اسلامه ويرد إلى اخوانه، فيحكمون فيه بحكمهم، ومن تنصر من المسلمين فليس لأحد عليه من سبيل"[17]. فأسعفه في جميع ما طلب منه، فبعث إليه جيشا كثيفا مكونا من اثنى عشر ألف فارس من النصارى برسم الخدمة معه والجواز إلى العدوة، فهو أول من جوز الروم إلى العدوة واستخدمهم بها، فوصله الجيش في شهر رمضان من عام 626هـ. كما ذهب المأمون إلى أبعد من ذلك وأسقط اسم المهدي بن تومرت من الخطبة وأنكر عصمته وقال لأتباعه: "لا مهدي إلا عيسى عليه السلام"[18] ويكون المأمون قد استجاب لمطالب الملك القشتالي.

لأنه كان في مركز ضعف بتزايد الضغوط الداخلية عليه وحتى الخارجية، وما يؤكد ذلك هي معاودة يحي الهجوم على مراكش، مستغلا انشغال الخليفة المأمون بالحصار المضروب على سبتة من

قبل أخيه عمران، والتي استطاع دخولها عنوة فهدم كنيسة الروم (نوتردام) وقتل الكثير من اليهود وبني فرخان، وسبا أموالهم.[19]

ويكون قد قتل رجال الدين المسيحيين بعد حرق الكنيسة وعددهم خمسة واعتبروا من الشهداء على حسب بعض المؤرخين المسيحيين.[20]

وبعد أن تولى عمر المرتضى الحكم، تمتع النصارى بمكانة مرموقة في بلاطه، حتى أنهم تركوا بعض عاداتهم بمدينة فاس. والشئ الذي يجب التأكيد عليه أن البابوية كانت راضية عن وجود هؤلاء النصارى لدى حكام المغرب العربي، بل حتى الاقرار على شرعيته، وما يؤكد هذا الرضا هي تلك الرسائل المتبادلة بين البابا وحكام المغرب ومن ذلك رسالة البابا "أنوسنت الرابع" "الموجهة إلى الخليفة المرتضى بواسطة مبعوثه الاسقف "لوب فرناندو داين" المعين في مدينة مراكش.[21]

ويظهر أن النشاط التنصيري بدأ يبرز بشكل أكبر خلال هذه الفترة بسبب ضعف الدولة الموحدية خاصة بعد هزيمة معركة العقاب (609هـ/1212م) فبدأ يراسل الخليفة الذي استكثر من النصارى في خدمته. آملا في اعادة المغرب إلى السيطرة المسيحية وأظهر البابا رضاه عن الامتيازات التي منحها الخليفة للجند النصارى[22]، على أنه كان بحاجة ماسة اليهم، كما أنه طلب المزيد منهم للخدمة معه وهذا ما دفعه إلى تجديد وترميم الكنائس التي كانت موجودة في دولته.ضمانا لبقائهم وهي العملية التي استحسنها البابا أنوسنت الرابع، وجعله يؤكد للخليفة أن هؤلاء النصارى مستعدين لمواصلة تقديم الخدمة له ضد أعداءه ومنافسيه، ومقابل ذلك يمنحهم المدن والقلاع والحصون للتمركز بها مخافة أي اعتداء محتمل عليهم،كما يجب توفير على الأقل ميناءا لتلقي المساعدة أكثر من الدول المسيحية. ويحاول البابا اقناع الخليفة على أن هذا الإجراء هو في صالح جند النصارى ومهامهم، كما أنه في صالح الخليفة أيضا. هذا الذي أكد أن البابا يساند التواجد المسيحي ويدعمه والهدف من ذلك هو تحقيق مكاسب للحركة الصليبية مستغلا حاجة الخليفة لخدماتهم. وفي هذا الاطار بعث البابا رسائل أخرى مماثلة إلى كل من سلطان تونس وأمير بجاية وأمير سبتة يوصيهم بالنصارى المتواجدين في بلادهم. لكن الخليفة المرتضى رفض هذه المطالب ولم يستجب لها وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعث بها إلى البابا أنوسنت والمؤرخة في 18ربيع الأول 648هـ/1250م[23].وحاول البابا الالحاح عليه لقبول الأمر وإلا منع الجند النصارى من الخدمة

لديه، وأنه سيمنع الجنود الذين كانوا بصدد التأهب للالتحاق بالمغرب[24]. لأن الخليفة في هذه السنة طلب الاستعانة بالجند النصارى، وهذا ما تبينه رواية ابن عذاري الذي يقول: "وكان المرتضى نظر في ضم عساكره، ودبر في أمره بنواهيه وأوامره ووجه إلى الأندلس برسم أن يصله جمع من النصارى ليركبهم معه ويكونوا له أعوانا وأنصارا".[25]

وبالنسبة للفرنسيسكيين فقد عقد سان فرانسوا المجلس الأول لفرقته في (616هـ/1219م) لتقسيم العمل وتوزيع مناطق العالم المزمع تنصيرها بين منتسبي الفرقة والتي من أهمها المغرب وتونس، ففي حين لقي أعضاء البعثة الموجهة لمراكش حتفهم بالإعدام، إلا أن بعثة تونس بزعامة الراهب"جيل" لم تلق نفس المصير على الرغم من كثرة الصعوبات التي واجهتها[26]، وهذه الصعوبات قد انعكست بدورها على تجار المسيحيين الذين وجدوا في الإرساليات الدينية التبشيرية نموذجا متهورا ومندفعا في سبيل الاستشهاد، مما أثار حوله جوا من البلبلة التي نغصت عليهم الأمن والاستقرار الذي كانوا ينعمون به، لذلك اتخذوا موقفا مناهضا لأولئك النصارى المتحمسين أكثر من اللازم في 1219م ليتم قبولهم بصورة طبيعية بين المسلمين بدون ضرر أو أذى يلحقهم وممتلكاتهم.[27]

ومما يلاحظ على قوة الفرنسيسكان حضورها المدعوم من الكنيسة والدولة الذي مكنها من أداء دور بارز في المعاهدات المبرمة بين تونس والدول الأوربية اعتبارا من (670هـ/ 1271م)، وقد استمدت ذلك الوزن على ما يبدو من وصايا البابا"اينوسان الرابع" للسلطان الحفصي أبي زكريا بمراعاة الرهبان الفرنسيسكان الوافدين على إفريقية من المغرب[28]

ويجب أن لا ننسى ما أسفرت عنه معاهدة الصلح المبرمة مع المستنصر اثر حملة لويس التاسع على تونس (668هـ/1270م) التي أعطت الحق لرجال الدين في الاستقرار وبناء الكنائس والأديرة وكل ما يُمكنهم من أداء الطقوس المسيحية، وحق الإقامة والاستقرار[29]، وهناك معاهدة أخرى وقعها السلطان الحفصي أبي عمر حفص بن يحي عام 684هـ/1285م وكان من ضمن بنودها حق النصارى في ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية ،وأن يسمح لهم بقرع أجراس كنائسهم. لقد أدرك النصارى الكاثوليك فشل محاولاتهم العسكرية في احتلال ارض المغرب الإسلامي، لذا كان عليهم إتباع وسائل أكثر نجاعة لتحقيق مشروعاتهم المتعددة على الأرض الإسلامية، وذلك بشكل سلمي وبدون إثارة مشاكل بين الدول أو السلطة الرسمية، ورأوا أنَّ ذلك لن يأتي إلا عن طريق معرفة

الآخر، ودراسة لغته ومعتقداته ومن ثم اكتشاف الثغرات التي يمكن الولوج إليها للوصول لتنصير المسلمين بالحُجة والبرهان، وهذه الفكرة خُطط لها منذ 1250م باسبانيا في اجتماع بمجلس الكهنة الذي قرر إرسال ثمانية من الرهبان لتونس لإنشاء "مدرسة عربية" يتولى فيها المبشرون دراسة لغة المسلمين ومعتقداتهم، وكان على رأس فرقة "الدومنكان" بتونس الراهب الشهير" ريمون مارتان" Roymond Martin الذي عُرف بجداله ودفاعه للمسيحيين، وفعلا نشأت أول مدرسة للدراسات العربية والإسلامية 648هـ/1250م نتيجة الضغط الذي مارسه خايمي الأول ملك أراغون الملقب بالفاتح على الخليفة الحفصي المستنصر، وصار ريمون مارتان والأب ساندرا sandra على رأس هذه المدرسة.[30]

ومما يُذكر أن الدومنكان عملوا بنشاط في تلك المدرسة وفي جو مُلائم على عهد المستنصر الحفصي، بل وكانوا يزعمون أنهم اقتربوا من تحقيق هدف كبير وهو تنصير الحاكم نفسه بحكم علاقته الوطيدة مع ريمون مارتان ،ويعلق رضوان البارودي على ذلك بقوله انتشرت ظاهرة في أوربا خلال القرن 7هـ/13م وتتمثل في تلك الموجة من التفاؤل التي انتابت الاوساط المسيحية هناك بإمكانية تنصير مسلمي المغرب وحكامه[31]. ولعلى أهم الشخصيات التي ادعى الرهبان أنها ترغب في التنصر شخصية الخليفة الحفصي المستنصر بالله، ويذهب البعض إلى أن حملة لويس التاسع على تونس كانت بهدف حماية السلطان من بطش المسلمين، لكن الحقيقة أن الأب مارتان ريموند استغل سياسة التسامح التي أبداها مع النصارى لخدمة مشروعه التنصيري الذي يبدو أنه فشل في دعايته فرجع إلى أوربا ومعه الراهب سندرا في 1269م[32]، والملاحظ ان الرهبان والفساوسة لم يكفوا عن القيام بأعمال التبشير على الرغم من العنف الذي تعرضوا له من قبل السلطات الحفصية وحتى من العامة، وكان الهدف من ذلك هو ضرب الأمثلة في التضحية في سبيل المسيحية[33].

وعلى الرغم من عملية التبشير إلا أن المصادر لا تشير لأي حالات ارتد فيها المسلمون عن دينهم إلى المسيحية. والواقع أن هناك حالة واحدة ترد عند المؤرخ ابن القنفذ الذي يقول أن والي قسنطينة المسمى ابن الوزير ثار ضد السلطان الحفصي أبي اسحاق بن ابي زكريا عام 679هـ/1280م وكتب إلى ملك اراغون بدرو الثالث يستدعيه لمناصرته ضد السلطان. وقد كتب أهل قسنطينة إلى السلطان عهدا مشهود بشهودها أن ابن الوزير ارتد واكل الخنزير وأنه اظهر ما يدل على نفاقه.[34]

ولم تيأس السياسة الكاثولكية من ذلك المشروع، فأرسلت مُبشراً دومنيكياً آخر 1299م وكان هذه المرة برعاية خايمي الثاني ملك أرغون، ويبدو بعد ذلك أن الفرنسيسكان استقطبوا مراكز الدعاية المسيحية بافريقية لدرجة لا يمكن للدومنكيين منازعتهم فيها.[35]

هذه الحماسة والاندفاع للتبشير جعلت بعض ملوك أوربا كملك صقلية فريدريك الثالث أن يطلب في (617هـ/1317م) من السلطان الحفصي ابن اللحياني إيواء بعض الرهبان الذين كانت السلطة البابوية تطاردهم، بل واقترح أن تكون جربة مقراً لهم متعهداً بعدم ممارستهم لأي نشاط تبشيري هناك،[36]

ويُعتبر الراهب "ريمون لول"[37] أول نشطاء الفرنسيسكان الذين لمع نجمهم في أفق الدعوات الإسبانية- القطلونية- لتنصير إفريقية "ودعوة إخوانه اليهود والمسلمين إلى هذا الدين" وليس معنى هذا انه تبنى التبشير السلمي في دعوته تلك، بل كان برنامجه لا ينفي أبداً احتمال التدخل العسكري، ووجوب الاستعداد للكفاح المسلح ضد المسلمين بوسائل خاصة...".

ويرجع الفضل إلى لول في تأسيس معهد" ميرامار" الذي أحدثه أمير الأراغون خايمي الثاني ليكرس فيه 13 راهباً فرانسيسكياً لدراسة اللغة العربية بهدف شرح مفاهيم المسيحية ومعتقداتها لتنصير المسلمين الأمر الذي شجع مجمع "فيينا" سنة (1311-1312م) على تأسيس خمس مدارس للغات الشرقية- العبرية والعربية الآرامية- وذلك بإشراف الكنيسة والدولة.[38]

إن الجرأة والاندفاع الذي مارس به هؤلاء الرهبان- وعلى رأسهم "ريمون لول"- مهامهم التبشيرية في وسطٍ يعتز بإسلامه جعل من الصعب القول بنجاح تلك المهام، فقد ثار المسلمون على هؤلاء، وحرّضوا على قتل "لول" وأمثاله باعتبارهم مشركين يعملون على ردة الناس عن دينهم، وقد طالبت العامة السلطان الحفصي أبا حفص عمرو (683/694هـ- 1284/1295م) بالقصاص من "لول" إلا أنه اكتفى بنفيه إلى خارج البلاد، إن هذا الغضب الجماهيري لم يردع هذا الداعية الجريء، ولم يمنعه من العودة إلى البلاد الحفصية بعد خمسة عشر عاماً ليجهر بدعوته للمسيحية في بجاية، وأُلقي علية القبض وسُجن هو ومن معه، الأمر الذي دعا بالبابا كليمان السابع لمنح امتيازات خاصة لمن يساهم في افتداء ثلاثمائة وخمسين نصرانياً في بجاية منهم فرنسسكيون في الأسر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الرعاية الحثيثة التي تتابع بها الكنيسة

براجها التبشيرية والتي كان لها انعكاسها على المجتمع المحلي الذي رأى في وجود هؤلاء النصارى على حدودهم الإقليمية البحرية خاصة دخلاً هاماً روج لتجارة الرقيق والأسرى، حيث أن تدخل البابا" كليمان السابع" لافتداء ثلاثمائة وخمسين نصرانياً يعكس نشاط تلك العمليات.[39]

إن هذا الجو المشحون لم يثن عزم لول عن العودة بعد سجنه إلى تونس الحفصية، ولكن بوصاية قوية من الملك خايم الثاني ملك أرغون الأمر الذي مكنه من الاستقرار بتونس أكثر من سنة ونصف، وإشاعة إمكانية تنصير ابن اللحياني برعاية سامية من "خايم الثاني" ملك الأرجون عن طريق سفيره "غليوم أرلومار"، ويبدو إن خايم هذا كان متفائلاً بتنصر ابن اللحياني لدرجة انه دعا ترجمان السلطان القطلاني الأصل إلى استمالة السلطان الحفصي إلى المسيحية بل والتحدث مع البابا في هذا الشأن.[40]

وفي أواخر القرن الرابع عشر 800هـ/1397م دعا البابا" بونيفاس الثامن" جميع النصارى إلى تخليص مسيحيين في الرق بتونس منهم ثلاثة فرنسسكيين وثلاثة دومنكيين وثلاثة بندكتيين ومتسكان من فرقة أوغسطينوس.[41]

ولنا أن نتساءل: هل فعلاً فكر السلطان الحفصي جدياً في التنصر؟ أم إن هؤلاء النصارى عولوا على كون أمه نصرانية فرأوا إمكانية إتباعه دينها؟ وإذا كان ذلك حدث فعلاً فلماذا لاذت المصادر الحفصية بالصمت إزاء هذا الموضوع؟ وإذا كان قد تنصر أو أراد ذلك فلماذا عند خلعه أمام منافسه اختار طرابلس مقراً للإقامة وعاش في المشرق أكثر من عشرة سنوات؟ لم لم يتخذ اسبانيا القطلانية أو فرنسا أو صقلية ملجئاً له وهم مستعدون لاستقباله وإيوائه ليكون لهم ذريعة يحققون من ورائها أهدافهم التوسعية؟ وبالتالي نخلص إلى القول أن ابن اللحياني كان في الوضع سياسي غير مستقر، وقد لعب بهذه الورقة وقرّب منه ريمون لول وأمثاله ليوحي لهم انه في انسجام مع المسيحيين دولاً وملوكاً، وبالتالي يؤمن جانبه الضعيف من خطر منافسيه من الأسرة الحفصية.[42]

وبالرغم من ذلك فإن برنشفيك قد أورد بعض الحالات التي يمكن القول أنها تُمثل نجاح تلك المحاولات الطويلة الأمد على الصعيد الرسمي الحفصي، فلقد عبر احد الشبان من أبناء أخي الأمير أبي زكريا الحفصي في (634هـ/1236م) عن رغبته في التحول للمسيحية للبابا" غوريغور التاسع"

ولكن الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية عارض ذلك بدعوى اندفاع ذلك الشاب وعدم اقتناعه بالدين المسيحي بدليل انه ظل على إسلامه مقيماً في صقلية في خدمة فردريك الثاني من ضمن المكلفين بخيوله ولم يتم تعميده من البابا.

وفي حالة أخرى يُشار إلى "تعميد" ابن اسحاق الحفصي برعاية بطرس ملك أرغون الذي تسمى باسمه وقدم إلى صقلية لينضم إلى شارل دانجو عام (682هـ/1283م)، وكان أيام السلطان أبي بكر على المهدية ابن أخ له يُقال أنه راسل البابا يوحنا الثاني وأخبره بأنه يريد التعميد، وبعده بتسليم المهدية لإخوانه الجدد في الدين الذين يستطيعون بعد ذلك احتلال كامل بلاد المغرب.[43]

إلا أن كل تلك الأخبار التي لُفقت في هذا الشأن والتي نجحت فعلاً في محاولاتها التبشيرية أو كادت نراها. يتداخل فيها الجانب السياسي بشكل واضح وخاصة فيما يتعلق بالصراعات والمنازعات والمنافسات على الحكم والعرش فيما بين أبناء الأسرة الواحدة والتي يدفع احد أفرادها الثمن لفترة قصيرة يكون الشعب الضحية الوحيدة الذي لا تُقدر تضحيته بثمن.

خاتمة: إن التواجد المسيحي سجل حضورا قويا خلال هذه الفترة من حكم الدولة الموحدية، ويعود ذلك إلى عدة عوامل تظافرت وهيأت لهذا التحول في استكثار حكام الدولة من الجند النصارى. ومن ذلك أن الدولة الموحدية كانت تعيش في عصرها الثاني وهو طور الانحلال والتدهور، والذي عرفته بعد معركة العقاب وهي نفسها حرب صليبية بين جيوش الناصر الموحدي والجيوش المسيحية بدعم من الكنيسة واستجابة ومباركة من البابا نفسه. ومنها أيضا عوامل الفساد السياسي الذي تمثل في ضعف السلطة المركزية والصراع على الحكم، الذي دفع ببعض الحكام على غرار المأمون والمرتضى إلى الاستعانة بالجند النصارى، في تسوية الخلافات الداخلية وبعض الثورات، وهو الشيء الذي جعلهم يقدمون جملة من التنازلات لصالح هؤلاء النصارى كترميم الكنائس وبناء أخرى وإنشاء المعابد[44].

كما شهدت الحركة الصليبية نشاطا وحركية خلال هذه الفترة من خلال دور المبشرين والرسائل التي كانت البابوية ترسلها، راغبة في عودة المسيحية إلى بلاد المغرب من جديد. على أن هذه الأخيرة لم تنس أن المسيحية كانت مزدهرة في افريقية قبل الفتح الإسلامي، وأنها مثلت إحدى المراكز الهامة لهذه الديانة، وتحيّنت الفرصة لبعث أمجاد المسيحية فيها من جديد، مستغلة في ذلك

حالة الضعف والفوضى والتعفن السياسي للدولة للموحدية مع بداية القرن الثالث عشر الميلادي. ورأت في الكنيسة والمعابد الوسيلة الفعالة في دعم الوجود المسيحي، وهو الشيء الذي ركز عليه البابوات من خلال الضغط على الأمراء المسلمين، بهدف ضمان الاستقرار لهؤلاء النصارى، وبعد ذلك يتم التخطيط لعملة التنصير والتبشير، وهذا ما أكدته الإرساليات التبشيرية التي وصلت إلى بلاد المغرب خلال القرن الثالث عشر الميلادي لانجاز مهامها التنصيرية.

إن السمة الأبرز التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد أن الكنيسة في أغلب الأحيان لم تستطع تحقيق مسعاها ولا مقصدها نتيجة عدة عوامل دينيَّة وسياسيَّة واجتماعيَّة مختلفة، واعترف المنصرون أنفسهم بذلك معتبرين ذلك تَصَلّبًا من جانب المسلمين، فقد كان المغرب- ولا يزال- على امتداد تاريخه قلعة حصينة للإسلام، لم تفلح المحاولات الاستعمارية ولا الأعمال التنصيرية في ثني شعبه عن الاعتزاز بالدين الإسلامي والدفاع عنه، وبذل الغالي لأجله. بيد أنَّ هذا الفشل الذي تكبدته الأطراف التَّنصيرية والاستعمارية، لم يَحُل بينها وبين سلك سُبُل أخرى لتحقيق أهدافها، فكان الغزو الفكري التنصبري الذي سخر أحدث الإمكانيات وآخر المبتكرات.

الهوامش:

1 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي ،بيروت لبنان، ط. 2، ص 449.

2 - عبدالرحمان عبدالله الصالح،التنصيرأهدافه وسائله حسرات المنصرين، دار الكتاب والسنة، الرياض، ط.1، 1999، ص.10

3 -أكرم عبد الستار كساب، التنصير مفهومه وأهدافه، مركز التنوير الإسلامي، 2004، ص 20.---4- عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت-لبنان، 1971،ج. 6، ص106-107؛ خليل إبراهيم السمرائي، بدايات انتشار الإسلام في المغرب العربي، مجلة المؤرخ العربي، العدد، 31،1987، ص132---5 - سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1995، ج. 1، ص113.---6 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقا في العربي، ط. 2، 1996، ص 81؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص28.

7- يرى أرنولد توماس أن بلوغ الأسقفيات 500 قبل الوندال لا يؤكد بالضرورة عدد المؤمنين من المسيحيين على أن العادة المتبعة من الكنيسة الإفريقية هي تعيين أساقفة في معظم المدن الصغيرة. (انظر، توماس أرلوند : الدعوة إلى الاسلام، تحقيق وترجمة، حسن ابراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية،1971، ص144-145)

8-القادري بوتشيش، الجاليات المسيحية بالمغرب الإسلامي خلال عصر الموحدين، مجلة الإجتهاد، بيروت، لبنان، 1996، ع.28، ص.82.

9- إبراهيم القادري وتشيش: الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، ط. 1،1995،ص235-236.---10-رضوان البارودي: دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية،2007، ص200؛

Ernest Mercier: Histoire De L'afrique Septentrionale (BerBerie), Paris, 1868, T. 2, P. 8

11 - ممدوح حسين وشاكر مصطفى: الحروب الصليبية في شمال افريقيا وأثرها الحضاري، دار عمان، الاردن، ط. 1،1998، ص398-399؛

Georges Marcais: La Berberie Musulmane et L'orient au moyen age, Aubier, editions, Montaigne, conti, paris, 1946, p271.

12- الفرنسيسكان: منظمة مسيحية اسسها فرانسيسكو أسيزFrancois d'Assis Saint(1182-1226م) بفرنسا عام 1208م ويقول بأن الله أرسل فرانسيسكو وأتباعه لتحديد حياة السيد المسيح عليه السلام والحواريين لذلك. ظهر نشاطها في بلاد المغرب بعد اتصال فرانسيسكو بملك قشتالة 1213م ليساعده على السفر إلى هذه البلدان. (ينظر: ممدوح حسين وشاكر مصطفى: المرجع السابق، ص405، هامش3). والدومينكان: منظمة مسيحية أسسها سانت دومنيك (1170-1221م) Saint Dominique في تولوز عام 1215م بعد موافقة البابا هونوريوس3Honorius عام 1216م وصارلها خلايا في العديد من القرى وحتى الجامعات.(ينظر:

E.Royston pik: Dictionnaire Des Religions, Adaptation Française de serge hutin, presses universitaires de France, paris, 1954, p110-111.

13- بديعة الخزاري، تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1،2007، ص24 ؛ ممدوح حسين، المرجع السابق، ص405.---14- بديعة الخزاري، المرجع السابق، ص22-23.

15- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص407-408. ---16- نفسه، ص 407 ، هامش 2.

17 - ابن أبي زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، كارل يوحنا تورنبورغ، طبع مدينة أوبسالا، دار الطباعة المدرسية، 1823 ص167.---18- نفسه، ص167 .

19- ابن عذاري المراكشي: البيان، قسم الموحدين، تحقيق، محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،ط. 1،1985،ص 284، ص 298 ؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص 169. ---20- البارودي، المرجع السابق، ص 213.

21 - محمد العروسي المطوي،الحروب الصليبية في المشرق والمغرب،دارالغرب الاسلامي،1982 ص188.

22- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص.397---23- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص398.

24 - نفسه، ص399؛ .Georges Marçais, op. cit, p271---25- ابن عذاري، المصدر السابق، ص399.---26 -في حين يقول البارودي ان أول من قتل من الرهبان في تونس راهب يدعى الأب ريشار عام 1219م بسبب حماسته الزائدة لنشر الديانة المسيحية في تونس،ينظر: البارودي، المرجع السابق، ص221-.222

27- بديعة الخزاري، المرجع السابق، ص 25.---28 -روبار برانشفيك،تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من بداية القرن 13م إلى القرن 15م،تر. حمادي الساحلي،دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان،ط.1، 1988،ج.2، ص 470وما بعدها.---29 -كانت هذه المعاهدة بين المستنصر الحفصي والملوك الصليبيين:شارل دانجو ملك صقلية وفيليب الثاني ملك فرنسا وتيباط ملك نافار.حول المعاهدة ومضمونها، ينظر:

MAS LATRIE, traités de paix et de commerce et documents Divers conçernant Les relations des chretiens Avec les arabes de l'afrique septenrionale Au Moyen Age, Henri plon, Imprimeur Paris; 1866; p.93-94.

30- البارودي المرجع السابق، ص222.---31-نفسه،ص.224

32-شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تر.محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1978، ج.2ص180.---33-روبار برنشفيك المرجع السابق، ج1،ص488

34 -ابن القنفذ القسنطيني،الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية،تح.محمد الشاذلي النيفر،عبد المجيد التركي،الدار التونسية للنشر،1968،ص.139

35- clara maillard, les papes et le maghreb aux 13ème et 15ème siecle, étude des lettres pontifiicales de1199 a 1419, brepols publishers, belgium, 2014, p53-54.

36- Michael Lower, Ibn al-Lihyani: Sultan of Tunis and would-be christian convert (1311-18) Mediteranean Historical Review, Vol. 24, N.1, June 2009, p23.

37- رامون لول raymond lulle (1232-1316م) ولد بميورقة من جزر البليار، وفرت له أسرته كل ظروف النجاح بحكم أنها كانت مقربة من الملك الأول ملك كتالونيا . تتلمذ على يد أسير مسلم اللغة العربية وأصول الفلسفة ومنطق التفكير العلمي لمدة تسع سنوات، ولعل هذا ماجعل لول يغتر بقدراته العلمية والعقلية ويحاول اقناع المسلمين بفكرة التثليث وترك التوحيد، عمل على التبشير في الأندلس والمغرب. ينظر : احمد رنيمة، الإسلام في مصادر التدوين الأوربي من مدونات الجدال المسيحي إلى مصنفات الإستشراق الحديث، مجلة الإنسان والمجتمع، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، العدد2، الجزء الثاني، ديسمبر 2011، هامش 34، ص.14

38- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص426-427؛ clara maillard,op.cit,p159

clara Maillard, op.cit, p175-176; michael lower, op.cit, p23.-ibid.p157-163.---40-39

41- برنشفيك، المرجع السابق، 1، ص489.---42- نفسه، ص495-496.

43- برنشفيك، المرجع السابق، ج.1، ص497-497.---44- بديعة الخرازي، المرجع السابق، ص 25.

Abstract: Linked to the history of the Crusades movement usually Islamic orient, but barely remember the Islamic Maghreb, although it was the scene of aggression crusades especially in the west wing. Crown ordered doubt that the papacy was known the importance of the region, because of its inherent hatred repugnant against it on the grounds that the Moroccans took over Jihad operation in. laket is the fifth century AH real Launches in the seizure of the Islamic Maghreb under the umbrella of the papacy.

Weakness and fatigue that has contributed to the Almohad dynasty with the beginning of the seventh century contributed to return the crusader forces to exercise its missionary evangelist, but Different manners, where he wore the Crusader movement in this new phase dress advantage desire to revive the Christian glories of using roads and peaceful methods thanks to the papal efforts and a number of Missionaries the likes of Ramon Llull.

Christianity, Evangelization, The Christianization, Papacy, Missionaries. : **key words**